الأسرة بين الإجحاف والإنصاف

أ.د. محمود محمد عمارة

الأستاذ بجامعة الأزهر

تمهيد:

ستون ألف كتاب عن الشرق الأدبي طرحتها دور النشر الغربية في أقل من قرن من الزمان، وبالتحديد: من عام ١٨٠٠م إلى عام ١٩٥٠م وكانت بأقلام مستشرقين يحاولون بالاستشراق إنشاء أسلوب غربي للسيطرة على الشرق، وإعادة صياغته ثم ممارسة السلطة عليه.

ولم يكن الاستشراق مجرد مبادرات فردية؛ ولكنه ارتبط بمؤسسات تبشيرية .. وأغراض استعمارية، ومسئوليات دولية أجنبية، وهو يعمل مع الكنيسة ومع وزارات الاستعمار .. مؤدياً دوره في إثارة الشبهات .. كرأس حربة للتبشير ومعاهد الإرساليات لخلق ظاهرة انتقاص العرب والمسلمين وفكرهم ولغتهم وعقائدهم.

واجبنا وواجب الأمة أن تنهض لكشف هذا الزيف والتصدي لهذا الزحف.. على حد قول الأب "الكرملي" عن هؤلاء الطاغين: (لابد أن ينتقدوا الانتقاد الصحيح، ولقد وجدنا هفوات لا تغتفر لهؤلاء المستشرقين في جميع الأمم وفي جميع التصانيف وما نشروه من كتب)[١].

ويحملنا على هذا الرد .. تصورنا لحجم هذا الخطر الداهم، فالاستشراق والاستعمار والتبشير أشبه بالحلقات الثلاثة المتداخلة التي يتخذها "التعاون" شارة له دلالة على قوة التماسك[٢].

---

(١) مجلة المجمع العلمي بدمشق – المجلد ١٤/٣٣٦/١٩٣٦.

(٢) الإسلام والثقافة الغربية / ١٠٦.

وإذا كنا لا نفسر الآية الكريمة منزوعة من سياقها .. فإننا ننوه هنا بمركز المرأة المرموق .. ومن خلال الأسرة وكيف تتراءى المرأة لنا تحت سقف البيت موفورة الكرامة، مرفوعة الرأس.. لها دورها المؤثر في ترقية الحياة، وتنشئة الأجيال على نحو يرد الله تعالي بها كيد الكائدين الظانين بالإسلام ظن السوء. هذا الإسلام الذي أعلى قدرها، وغالي بمواهبها على نحو غير مسبوق ولا ملحوق.

من ملامح المنهج الإسلامي

لقد كان للإسلام منهجه الراشد في صيانة الأسرة وحتى تستقر وتستمر.. عن طريق تشريعاته وتوجيهاته قبل الزواج وأثناء الزواج، وعندما تهب العاصفة، ويعني ذلك أن الأسرة في الإسلام ولدت لتبقى، ولأن الطلاق أبغض الحلال إلى الله عز وجل.. فقد وضعت الشريعة من الضمانات – طبق خطتها إزاء كل بغيض – وضعت ما يمنع وقوعه.. وإذا وقع.. تظل المرأة موفورة الكرامة مرفوعة الرأس كما قلنا.

أما قبل الزواج فقد كانت توجيهات الإسلام صارمة مركزة على ضرورة دراسة الجدوى.. بوضع الخاطب في نقطة الضوء.. حتى نحسن تصوره على بينة.. ليجئ حكمنا عليه صائباً.. وبالتالي نكون على رجاء الاستقرار والاستمرار.. وقد كانت هذه القضية من الأهمية بحيث باشرها ﷺ بنفسه مشيراً إلى دواعي الاختيار.. التى ينبغي أن تتجاوز بها القشرة الظاهرة.. لتغوص في الأعماق.

مر رجل على النبي ﷺ، فقال لأصحابه: "ما تقولون في هذا؟". قالوا: حريّ إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يشفع، وإن قال أن يستمع إليه.. ثم سكت. فمر رجل من فقراء المسلمين، فقال: ما تقولون في هذا؟

قالوا: حريّ إن خطب ألا ينكح، وإن شفع ألا يشفع، وإن قال ألا يستمع إليه، فقال رسول الله ﷺ: " هذا خير من ملء الأرض مثل هذا"[1].

لقد وقع المسئولون أسرى جمال الفتى أو ما بدا من ثرائه.. أو ما بدا من تراثه أو فتائه! ولو مضى اختيارهم طبق ما يشتملان، فلسوف تنطفئ هذه الرغوة العائمة يوماً، تلك الرغوة التى لا تصبر على هبة النسيم.. والتى تتكشف.. بل تنكسف.. عن هباء.. وخواء، لا تقوم معه أسرة، ولا يستقر به بنيان.

وحرصاً منه ﷺ على صحة المقياس، يتجه بهم إلى الأعماق وفيها من جواهر الأخلاق.، فإن هذه الأعماق هي التى تستقر ولا يبقى على السطح إلا الطحالب.

اختيار الزوجة

" إذا خطب أحدكم المرأة .. فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل"[2]. يتم ذلك كله تحت إشراف الولي "فلا نكاح إلا بولى"[3]، على أن يكون للبنت رأيها في خاطبها.. هذا الرأى المحروس بحكمة الولى وتجاربه، حتى لا يخدعها خَتّارُ ماكر.

إنه من الضروري معرفة الطرف الآخر وبعمق حتى لا نفاجأ بما نكره، ذلك بأن بعض الناس يفاجأ بهذا الذي يكره لأنه لم ير الطرف الآخر على حقيقته واكتفي بقراءة العنوان، ومما تجب العناية به عند الاختيار :

---

(١) رواه البخاري.
(٢) أبو داود والحاكم وصححه.
(٣) رواه الترمذي.

١- أن نلتقي على مبدأ .. وخير المبادئ الـدِّين وفـي ظلـه يمكـن التعايش.

٢- والميل القلبي لابد منه فراراً من النفور المانع من التكيف، وهذا ما يشير إليه قوله ﷺ، لرجل يريد الزواج: "انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما"(١).

إن المرأة قد تكون جميلة، بل وفاتنة، ومحط الأنظار، ولكن قـد لا يروق الرجل منها شئ هو ينفر منه بطبيعته، وقد يكون في نفس الوقـت ميزة فيها عند غيره.

٣- ضرورة سؤال الآخرين وعلى المسئول أن يذكر العيـوب التـى يراها مقتصراً غير مبالغ، وبعيداً عن التشهير، وعلى قدر الحاجة.

٤- وللخاطبة من النساء دور لا يتوفر للرجال وذلك بالتالي :

- تشم معطفها، تأكداً من رائحتها.
- ثم تتأمل كعبها، فقد تكون نحيفة.
- السؤال عن أخواتها.

فإذا عزم الأمر فلابد من طائفة من الأمة، أو على الأقل شاهدان ثم الوليمة، وإعلان الزواج.

ونتساءل: لماذا الإعلام.. أو الإشهاد؟

والجواب: إن ذلك يعنى الالتزام أمام المجتمع بتحمـل المسـئولية، حفاظاً على هذا الميثاق الغليظ الذي يفرض علينا جميعاً أن نتعاون علـى استقراره، واستمراره.

---

(١) رواه مسلم والنسائي.

ومن معاني التدقيق في اختيار شريك العمر: أن السلعة هنا غالية وهي المرأة، فلابد أن تعد لها كفئها من الرجال، إنها ليست متعة لكل ذواقة متقلب المزاج، وإنما هي "الجوهرة" التي يتسابق إليها المتسابقون، والسعيد حقاً من "ظفر" بها.

وإذا تلاقت تشريعات الإسلام وتضافرت، من أجل إنشاء بيت عصري على الفناء، فإن ذلك في بعض جوانبه تقدير للمرأة التى يجب أن تعيش آمنة مطمئنة، لا تتقاذفها الأمواج في بحر لجيّ، ولا تكون تحت رحمة من لا يقدرها قدرها.

فإذا صح المقياس وطرق الباب فتى مَرضيّ الخلق، مرضى الدين، فيجب قبوله، وإلا فلو رفضناه لكان الأمر على ما قال ﷺ : "إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير"، قالوا يا رسول الله: وإن كان فيه؟ يعنون هنا إذا كان فقيراً-، قال: "إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه.." قالها ثلاث مرات[1].

المرأة عندنا وعندهم

تلك هي كرامة البنت عندنا، فماذا عند غيرنا، فمن ينقمون علينا وما نقموا منا إلا أننا سبقناهم.

قالوا: البنت في دول الغرب عندما تبلغ سن الرشد يقول لها أبوها اذهبي حيث شئت، ثم يغلق الباب من ورائها، وتخرج البنت هائمة على وجهها، لا يهم أباها ما إذا كانت تأكل بجدّها، أو بجسدها؟ وقد تفرض

---

(١) رواه الترمذي وحسنه.

عليها الظروف أن تفقد أعز ما تملك، وهو العرض، في سبيل أرخص ما يُملك وهو الخبز، لقد عرضت نفسها على الرجل، فهانت وكل معروض مُهان.

ولما فقدت الزوج والمعيل، اقتحمت كل ميدان مناسب وغير مناسب، ثم ركضت هي وراء الرجل تطلبه ثم تدفع له المهر، متوسلة إليه أن يتفضل فيقبل، وقد لا تصل إليه، وقد تصل بعد أن قد سقطت في الطريق خمسين سقطة[1].

أما بعد الزواج

يقرر الإسلام أنه لابد من تعيين قائد للأسرة ..

أ. يرجع إليه في الملمات وعند الاختلاف.

ب. ثم يستأنس برأيه عند الاختلاف.

على أن لهذه القيادة خصائصها التى بها تتحقق مقاصد الزواج.

أولاً : مرشح فطري يجعل من الرجل سيد البيت وهو المعنى المشار إليه بقوله تعالي ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾

ثانياً : مرشح كسبي، وذلك ما يشير إليه قوله عز وجل في نفس الآية الكريمة ﴿وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾، إن الرجل هو القادر على الكسب وما يفرضه من معاناة ومخالطة تأباها طبيعة الأنثى.

---

(١) على الطنطاوي.

ثم تبقي الزوجة مع ذلك مستودع الحنان، وليس ذلك تقليلاً من فعالية دورها، لأن الواقع يؤكد أنه بلا حنان لا بقاء للإنسان، فالقيادة للرجل وهي قيادة تكليف لا تشريف، عطاء وبلا حدود، رعاية لا غنيمة، مسئولية لا تسلط، إننا نكلف الزوجة شططاً حين نحملها مسئولية القيادة، بينما هي مصدر الحنان، لأن ذلك سوف يستنزف طاقاتها حين نفرض عليها أن تحارب في جبهتين، فلا تبقي المعاناة لها طاقة تبذلها في إدارة البيت، ومن العدل أن يكون ذلك إلى القادر عليه وهو الرجل، على أن يكون ذلك كله من أجل مصلحة كل أفراد الأسرة.

وبناء على ذلك نقرر، أن إعفاء الزوجة من مسئولية قيادة الأسرة ليس إهمالاً لها، ولا تهويناً من شأنها ولكنه تقدير لظروفها، رحمة بها، ووضعاً للأمور في نصابها، ثم هو من ناحية أخرى، حسم للقضية فلا خلاف ولا نزاع، لاسيما وتوجيهات الإسلام لا تترك الزوج ينفرد في الساحة وحدة، ليدير الأسرة على مزاجه المتقلب، هذه التوجيهات التي تلازمه ضبطاً لخطواته ونزاعاته، كفائدة مسئول عن سلام البيت وهي في مجموعها تقول له إنك راع وإنك مسئول، اصبر على زوجتك، لأن فطرتها مختلفة عن فطرتك فلا تحملها بالعنف على ما تريد، ولا تتوقع منها كل ما تريد، لا تتصورها كاملة لأنك لست كذلك والعاقل لا يرضى عن صفاته هو شخصياً وإن رضي فهو مغرور مأزور.

وسوف يصدمه الواقع الصارم بما لم يكن يتوقع، وبما لم يكن يعلم، وعلى الزوج أن يقارن بين ما يعجبه وما لا يعجبه، ثم عليه أن يتغاضى عما لا يعجبه، من أجل ما يعجبه، وذلك بالصبر وعلاج الأزمات بالحكمة،

لأن الزوجة خلقت من ضلع أعـوج، إن أردت إقامتـه بـالقوة كسـرته، والمقياس الصحيح لتقدير الزوج هو: خيركم خيركم لأهله وأنـا خيـركم لأهلي، بل لابد من تدريب القلب على حبها، وعدم الاسترسال مع انفعالات الكراهية، لأن الإيمان الجامع مانع من ذلك، فلا يترك مؤمن مؤمنة بـأن كره منها خلقاً رضي منها آخر.

وأحياناً يضخم الزوج العيوب، وبنفس القوة يضائل من المزايا، إلى الذي يصعب فيه الوفاق، وهنا لم ييئس الإسلام من الأمل في تلافي الطلاق بمزيد من الحكمة المانعة من هدم المعبد على رءوس من فيه وما فيه.

وعلى الزوج – في ضوء تجاربه – أن يعلم أن أهـداف الـزواج متعددة وإذا لم يكن حب، فما كل البيوت بنيت على الحب، وما يبكي على الحب إلا النساء، وإلا فأين المروءة والتماس الأعذار للناس؟!

ولنفترض أن معين الحب قد غاض وجفت ينابيعـه إلا أن الحيـاة ممكنة مع ذلك فهناك الولد الصالح، وجمع الشمل وحماية الذريـة، ومـن وراء ذلك وعد الله عز وجل بالإصلاح وهو أمل لابد أن يتحقق يوماً، مع الأخذ في الاعتبار ضرورة أن يتفقد الزوج أحواله مع زوجته، فقد يهذبـه التأمل إلى أنه هو المخطئ وإذن فليصلح ما أفسد العطار.

وقد يكون مذنباً مفرطاً في جنب الله سبحانه فكان هذا الشقاق عقابا لـه، فلابد من التوبة والرجوع عن تعليق أخطائنا على شماعة الآخـرين، وقد يكون هناك حاسد حسد ونفث في العقد، فليكن هو عدوكما المشـترك والذي يجب أن تحتفظ بطاقتنا المبددة نتيجة إلى عدوكما المشترك: الشيطان الرجيم، وأن الشقاق والفراق تحقيق لأعز أمانيه، فلنفوت بالتسامح غرضه الأثيم.

هذا هو الأصل في الإسلام أن يكون زوج .. وزوجه، ولكن قد تحدث أمور تجعل من التعدد أمراً وارداً بل لا مفر منه، ومن واقعية الإسلام أن أباح هذا التعدد.

١- فالمرأة تحيض وتنفس مدة قد تطول، والرجل مستعد لأداء الحقوق الزوجية أبداً.

٢- أثبتت الإحصاءات أن الرجال أقل عدداً من النساء وأكثر بحكم رجولته تعرضاً للموت، ومن أجل ذلك وحتى لا يبقي عدد من النساء عوانس شرع الله تعالي التعدد.

إلى غير ذلك من الأسباب التى تجعل من التعدد استثناء من القاعدة، حفاظاً من الإسلام على التوازن، ولتعتدل كفتا الميزان، ويعني ذلك أن تشريع تعدد الزوجات الذي جاء استجابة لحاجة الفرد زوجاً أو زوجة: زوجاً يجد في التعدد إشباع حاجته، وزوجة قد تكون مريضة أو عاقراً ولا مانع عندها من أن تظل تحت جناح زوج يحبها ثم تكون له ذرية من الأخرى.

ومن الناحية الاجتماعية : قد تكون هناك حروب تنكشف عن عدد من النساء يفوق عدد الرجال، وإذن فمن الحكمة أن تكون المرأة زوجة بدل أن تكون خليلة، ويعنى ذلك أنه – بالتعدد – تبقى مقاصد الزواج مصونة بحصول الرجل على حقه في الإنجاب مثلاً، وحصول المرأة على حقها في البقاء في ظل رجل يحبها، وإن لم يحقق كل أمانيها، ومع هذا فمازل هناك من مقلدة الشرق، من يشغبون على الحق ونقول لهم: إنه في المجتمعات

الأوروبية التى تقلدونها ترى الزوج وله زوجة واحدة ولكن لـــه خلـــيلات أضعاف ما أباح الإسلام من زوجات حليلات فأى الفريقين خير مقاما؟

إن الإسلام – بإباحته التعدد – يواجه مشـــكلات المجتمـــع بالحـــل العملي، بينما هو في مجتمعات لا تدين بالإسلام يزيد المشكلة تعقيداً.

شاهد من بني إسرائيل على أهله

وهذا واحد منهم يلزمهم الحجة الدامغة ففـــي كتابـــه "الاتجاهـــات الحديثة في الإسلام" يقول المستشرق الإنجليزي "جب": "علـــى أن هنـــاك ميداناً يعتصم فيه التشريع الاجتماعي للإسلام اعتصاماً منيعاً، إنه ميـــدان الأحوال الشخصية، بما في ذلك الزواج والطلاق والإرث، إن سبب هـــذه المناعة لا يرجع فقط إلى شمول هذا النظام الذي يوجه عملياً كل فرد فـــي المجتمع، وإنما يرجع خاصة إلى أن القرآن قد عين قواعده الأساسية تعييناً واضحاً".

شبهة وردها

يقول الشنقيطى: "يزعم بعض الملاحدة من أعداء دين الإســـلام أن تعدد الزوجات يلزمه الخصام والشغب الدائم المفضي إلى نكد الحياة، لأن الزوج كلما أرضى إحدى الضرتين سخطت الأخرى، فهو بـــين ســـخطين دائماً، وأن هذا ليس من الحكمة وهذا كلام ساقط، يظهر سقوطه لكل عاقل، لأن الخصام والمشاغبة بين أفراد أهل البيت لا انفكاك عنه ألبته.

فيقع بين الرجل وأمه، وبينه وبين أبيه، وبينه وبين أولاده، وبينـــه وبين زوجته الواحدة، فهو أمر عادي، ليس لـــه كبير شأن وهو في جنب

المصالح العظيمة التى يجعلها التعدد من صيانة النساء وتيسير التزويج لجميعهن، والمصلحة العظمى مقدمة على المفسدة الصغرى[1].

من حكم الطلاق

وفي تشريع الطلاق – ومن خلال سورة الطلاق – تبدو صورة المطلقة معززة مكرمة يتحمل المجتمع كله مسئولية رعايتها، وجبر خاطرها وتلك آثارنا تدل علينا.

---

(١) محاسن الإسلام، ١٣.